التنميةُ المُستدامةُ في الخطابِ القرآني

سورة يوسف نموذجا

د.أيمن أبو مصطفى
أستاذ مشارك النقد والبلاغة ورئيس قسم اللغة العربية
بكلية الدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية
بولاية منيسوتا الأمريكية

عدد ٥٥ يوليو ٢٠٢٠ م

ملخص الدراسة

هدفت الدراسة إلى بيان اهتمام القرآن الكريم بالتنمية المستدامة من خلال خطابي الروح والعقل، ومن خلال الوقوف على مظاهر وظواهر التخطيط في سورة يوسف، مع بيان أثر السرد والحكي الأسلوبي في التمكين للغرض التعليمي أو الحجاجي أو التأثيري للأسلوب القصصي القرآني.

الكلمات الدالة:
التنمية – المستدامة – الخطاب القرآني- بلاغة الحث والتوجيه- خطاب الروح- خطاب العقل

مقدمة

وفق الله للوقوف على جوانب الخطاب التنموي في القرآن الكريم" التنمية المستدامة في الخطاب القرآني سورة يوسف نموذجا" وقد جاءت الدراسة محاولة أن تجيب عن الأسئلة التالية:

١- هل يمكن أن يكون القرآن الكريم نموذجا للقراءات المستقبلية والاستشرافية؟

٢- هل القصص القرآني تجاوز البعد الامتاعي إلى أبعاد إقناعية وتأثيرية وحجاجية وتخطيطية؟

٣- ما المميزات الأسلوبية للسرد القرآني؟

وكان منهج الدراسة يقوم على تتبع الظواهر التخطيطية في السورة ورصدها وتصنيفها من خلال منهج التحليل الأسلوبي للآيات موضع الاستشهاد يكون الوقوف على سماتها الأسلوبية.

وقد جاءت الدراسة خلال العناصر التالي:

أولا: خطاب القرآن الكريم للروح والعقل بسورة يوسف.حيث إن القرآن الكريم خطاب استهدف العقل والروح، فجمع بين المكون العقلي في عرض الحجة، والمكون العاطفي التأثيري في التمكين لها.

ثانيا: التخطيط التنموي في سورة يوسف، وفيه تناول الباحث العناصر التالية:

١- تخطيط الله ليوسف.

٢- تخطيط يعقوب عليه السلام لابنه:

٣- تخطيط الأبناء لأخيهم.

٤- تخطيط السيارة.

٥- تخطيط امرأة العزيز.

٦- تخطيط العزيز.

٧- تخطيط تفسير الرؤيا.

٨- تخطيط التعرف على يوسف وإخوته.

٩- تخطيط العودة .

ثالثا: ملامح التخطيط الأسلوبية، وفيه وقف الباحث على أهم ملامح السرد الأسلوبية في سورة يوسف عليه السلام.

ثم تبعت ذلك خاتمة فيها نتائج البحث وبعض التوصيات.

وإني لأسأل الله أن يكون في البحث ما يثير التساؤلات، فيفتح أبوابا للبحث حول هذه القضية، فالدراسات المستقبلية تنطلق من الواقع لتقرأ المستقبل، واضعة تصورا لمواجهة المشكلات.

الباحث

أولا: خطاب القرآن الكريم للروح والعقل بسورة يوسف:

القرآن الكريم في سورة يوسف خطاب تناول جانبي (العقل، والروح) فلن يكون الجسم منضبطا إلا إذا انضبط القلب والعقل، ولن ينضبطا إلا إذا انضبط الاعتقاد، ولذا فقد وجدنا في سورة يوسف عليه السلام خطابَ تأكيد العقيدة، ولذلك فقد بدأت بإثبات نسبة الكتاب إلى الله تعالى، وفي ذلك دفع لكل تهمة، ورد لكل مغالطة، فالمعرفة التي يقدمها القرآن الكريم معرفة لاشك في نسبتها إلى الله الحكيم العليم، لذا استحق هذا الكتاب أن يوصف بوصف مبين، فبعلم الله الذي علمه الله يوسف عليه السلام استطاع أن ينقذ أمة كاملة، وبعلم الله الذي أودعه في كتابه تستطيعون إصلاح الكون، فهذه الإشارة في البدء تحمل معاني يعجز العقل عن إدراكها كاملة، كما أن نسبة

كل خير إلى الله تعالى تبدو جلية واضحة، ولعلها أثر لتربية صحيحة، ونلحظ ذلك من خلال قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام" وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك ...." فهذا الغرس في التربية كانت ثمرته في الكبر، حيث حكى لنا القرآن الكريم قول يوسف عليه السلام" ذلكما مما علمني ربي " ولعل كل هذه التربية الإيمانية أثمرت أعظم موقف، حيث يرد المرء كل جميل لله تعالى:(ورفع أبويه على العرش , وخروا له سجدا . وقال:يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا . وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن , وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي . . إن ربي لطيف لما يشاء . . إنه هو العليم الحكيم).

ومن خلال خطاب العقل تُستغل الطاقات العقلية في معرفة الله، ومعرفة صدق الرسل، فهي دعوة للتفكر والتأمل والتدبر في آيات الله الكونية العظمى التي انتدب الله سبحانه عباده إلى إعمال العقل فيها بقوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون ﴾ (الرعد : ٣). وقوله تعالى : ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ﴾ (الروم : ٨). إضافةً إلى تسخير هذه القوى والطاقات للتعرف على سنن الله تعالى الكونية وقوانينه الإلهية.

ولعل هذا ما وجّه يوسف عليه السلام الخطاب دائما (يا صاحبي السجن , أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ? ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان , إن الحكم إلا لله ,)أمر ألا تعبدوا إلا إياه , ذلك الدين القيم , ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبي السجن , أما أحدكما فيسقي ربه خمرا , وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه , قضي الأمر الذي فيه تستفتيان)

ومن خلال خطاب الروح نجد اتصالا بين العبد وبين ربه من جهة، وبين العبد وبين الناس من جهة أخرى.

فالروح التي ينشدها الإسلام ليست تلك الروح التي تحمل الحسد (كما حملها إخوة يوسف) ولا تلك الروح التي تميل إلى كسب المال ولو من حرام، ولا تلك الروح التي تطلب كل شيء بقوة السلطان كما في قصة امرأة

العزيز، ولكنه ينشد الروح التي لا تيأس من رحمة الله ، مثلما حدث مع يعقوب عليه السلام، تلك الروح التي تعفو وتسامح مهما نالها الأذى كما حدث مع يوسف عليه السلام وإخوته عليهم السلام.

ينشد تلك الروح التي تباشر وظيفتها في أي زمان ومكان وتحت أي ضغوط، كروح يوسف وهو يدعو إلى الله في السجن.

فالحسد والتعلق بالدنيا وفتنة النساء تجعل القلب منشغلا بالدنيا، بعيدا عن الله، أما الدنيا حينما تأتي لمن لم يطلبها للذة أو لمنفعة، فإنها تصبح وسيلة للعطاء، كما حدث مع يوسف عليه السلام حينما قال) اجعلني على خزائن الأرض ; إني حفيظ عليم).

وفي سبيل تحقيق الانفلات من دائرة الشهوات يكون السلاح هو التعلق بالله، مع الصبر، فالصبر مفتاح الفرج، مع التجاوز عن هفوات الأقارب وغيرهم.

إن في قصة يوسف آيات وعبرا لكل من تأمل، إنها نموذج الفرج بعد الضيق، واليسر بعد العسر، ولعلنا نلحظ أنها جاءت لتبرهن على قوله تعالى(والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

فإن الإلقاء في الجب تبعه الأسر والرق، ومن ثم جاء السجن، ولكن برغم ذلك كله لم ينقطع رجاء يوسف عليه السلام من جهة، ورجاء يعقوب عليه السلام من جهة أخرى، فتلك رسائل تحمل الطمأنينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا.

وفي القصة تسلية وتثبيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأمته، فكأن في ذلك رسالة متعددة الاتجاهات، فهي للمشركين تحمل معنى التهديد والوعيد، يقول الطبري:"لقد كان في قصص يوسف وإخوته عبرة لأهل الحجا والعقول يعتبرون بها، وموعظة يتّعظون بها. (٤٩) وذلك أن الله جل ثناؤه بعد أن ألقي يوسف في الجبّ ليهلك، ثم بِيع بَيْع العبيد بالخسيس من الثمن , وبعد الإسار والحبس الطويل، ملّكه مصر، ومكّن له في الأرض، وأعلاه على من بغاه سوءًا من إخوته , وجمع بينه وبين والديه وإخوته بقدرته، بعد

المدة الطويلة , وجاء بهم إليه من الشُّقّة النائية البعيدة، فقال جل ثناؤه للمشركين من قريش من قوم نبيّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: لقد كان لكم، أيها القوم، في قصصهم عبرةٌ لو اعتبرتم به , أن الذي فعل ذلك بيوسف وإخوته، لا يتعذَّر عليه فعلُ مثله بمحمد صلى الله عليه وسلم، (٥٠) فيخرجه من بين أظهُرِكم، ثم يظهره عليكم، ويمكن له في البلاد، ويؤيده بالجند والرجال من الأتباع والأصحاب، وإن مرَّت به شدائد، وأتت دونه الأيام والليالي والدهور والأزمان"[١]

ثانيا: التخطيط التنموي في سورة يوسف:

وجدنا في سورة يوسف إشارة إلى دور التخطيط سواء كان لمقصد حسن أو سيء – في نجاح أي عمل، فإخوة يوسف حددوا المشكلة ووضعوا لها حلولا، وتابعوه، ونفذوه، محددين الزمان والمكان.

وكذلك يوسف عليه السلام استطاع التخطيط الاقتصادي ، من خلال تحديد المشكلة ووضع الحلول ومتابعة التنفيذ بنفسه، فقد حدد خططا بسيطة تمتد لأربع عشرة سنة، ثم خطة سنوية، وأعد المستودعات، وحافظ على الأمن والأمان، ليحقق نجاحا في مواجهة المشكلة، ويحقق مبدأ "حفيظ عليم".

فسورة يوسف درس في التخطيط والتنفيذ، وسنقف على مظاهر ذلك من خلال العناصر التالية:

١٠- تخطيط الله ليوسف.

إن الله تعالى هيأ ليوسف عليه السلام كل مقومات النبوة، فنلاحظ أنه ربّاه بعيدا عن أبويه لكي لا يقال إنه تعلم العلم وراثة، كما أنه كسر في نفسه فكرة الغرور بالنسب، فكان عبدا يُباع ويُشترى، كما أنه واجه فتنة

[١] **الإمام الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، تحقيق د. عبدالله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ، نشر: دار هجر للبحوث والدراسات العربية – القاهرة.سورة يوسف آية ١١١ صـ ٥٩ مج ١٣.**

النساء، كما أنه عامل العامة والخاصة ، حتى عايش أهل الجرائم، وقد شهدوا له بالإحسان.

فإنّ الحكمة الربّانية في كشف غيب الاصطفاء تَجلَّت في المآلات التي آلت إليها الأمور؛ فالله، سبحانه وتعالى، يريد يوسف رسولاً إلى أمّة عظيمة ومتحضّرة.فالإلقاءُ في البئر كان مقدمةً لإكرام مثوى يوسف،عليه السلام، في القصر، حيث يقول سبحانه تعقيباً على هذا الحدث:"... وكذلك مَكنّا ليوسف في الأرض". كذلك كان السجن مقدمة للسلطان "وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء ..."

١١- تخطيط يعقوب عليه السلام لابنه:

حيث تعهده صغيرا بالنصح والتوجيه، قال الإمام الغزالي رحمه الله: "اعلم أن ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أول نشوئه ليحفظه حفظا، ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئا فشيئا، فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به، وذلك مما يحصل في الصبي بغير برهان، فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه في أول نشوئه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان، وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مباديها التلقين المجرد والتقليد المحض، نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع من الضعف في الابتداء على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقى إليه، فلا بد من تقويته وإثباته في نفس الصبي والعامي حتى يترسخ ولا يتزلزل، وليس الطريق في تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام ؛بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه، ويشتغل بوظائف العبادات، فلا يزال اعتقادُه يزداد رسوخا بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها، وبما يسري إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسيماهم وسماعهم وهيآتهم في الخضوع لله عز وجل والخوف منه والاستكانة له، فيكون أول التلقين كإلقاء بذر في الصدر، وتكون هذه الأسباب كالسقي

والتربية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرةً طيبةً راسخة، أصلُها ثابت وفرعها في السماء "[1]

وقد أحسن يعقوب عليه السلام تربية ابنه، حيث رسم له طريق الهداية، وبين له منهج آبائه إبراهيم وإسحاق عليهما السلام، ووضح له أثر التعلق بالله تعالى. حيث قال""وكذلك يجتبيك ربّك، ويعلمك من تأويل الأحاديث، ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب، كما أتمّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق، إنّ ربك عليم حكيم".

وقد جاء في الحديث الصحيح أنّ أول ما بُدِئ به الرسول، صلى الله عليه وسلم، من الوحي الرؤيا الصادقة. ولا يبعد أن يكون ذلك سُنّة في الأنبياء. وإذا صحّ هذا الفرض فإنّ أول ما بُدِئ به إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، عليهم السلام، من الوحي هو الرؤيا الصادقة. وهذا يعني أنّ يعقوب، عليه السّلام، كان ينتظر بشغف أن تستمر سلسلة النبوة في نسله، كيف لا وهو نبيّ، وأبوهُ نبيّ، وعمُّهُ نبيّ، وجدّهُ نبيّ ؟!

وقد تحقق ما رسمه يعقوب عليه السلام من تخطيط لابنه، فقد بلغ أشده وآتاه الله حكما وعلما، وعلمه من تأويل الأحاديث، وكان مما اتسم به تأويل الرؤيا، والإنباء عن الغيب.

ولذلك فإن يعقوب عليه السلام أدرك أن ما فعله إخوته به كذب وادعاء منهم، فمن كان عنده مثل هذا اليقين كيف يصدّق أنّ الذئب يأكل من سيكون الرسول المصطفى؟ وكيف لا يبكي حتى تَبيضّ عيناهُ من الحزن على فراق رسول كريم؟

١٢- تخطيط الأبناء لأخيهم.

فقد كان تخطيطهم تخطيطا منظما برغم أنه تخطيط سيء، فقد وضعوا المشكلة أمامهم، ومن ثم بدأوا في اقتراح الحلول، حتى توصلوا بالإجماع إلى نتائج، فالمشكلة هي"إذ قالوا ليوسفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا ونحن عُصبة إنّ أبانا لفي ضلال مبين". وقد بينوا ضخامة هذه المشكلة، حيث أكدوها "بلام

[1] **أبوحامد الغزالي :إحياء علوم الدين ومعه تخريج الحافظ العراقي، مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م ،الجزء الأول صـ ١٨١.**

الابتداء" مستخدمين اسم التفضيل الذي دل على تفاوت المعاملة، ومن ثم جاءت جملة"إن أبانا لفي ضلال مبين" مؤكدة بإن واللام معا.

ومن ثم جاء قرارهم :"اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجهُ أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين".

١٣- تخطيط السيارة.

حيث كانت مصر ذات علاقة قوية مع الدول المجاورة ، فقد كانت التجارة رائجة، وقد عبر القرآن عن ذلك بقوله"وجاءت سيارة"، وقد كان يوسف عليه السلام حريصا على أن تظل العلاقات قائمة، فنظمها، ولم يقطعها وقت الشدة، بل ساعدهم وفتح لهم أبواب مصر، قال تعالى(فلما دخلوا عليه قالوا:يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر , وجئنا ببضاعة مزجاة . فأوف لنا الكيل وتصدق علينا , إن الله يجزي المتصدقين).

فمن الملاحظ أن التجار استغلوا يوسف بضاعة، وقد لاحظنا من خلال دلالات قوله تعالى :"وشروهُ بثمن بخسٍ دراهمَ معدودة وكانوا فيه من الزاهدين" إشارة إلى المستوى الحضاري للمجتمع المصري في حينه، فقد كانوا يستخدمون الدراهم، أي أنّهم يصكّون العملة الفضية كوحدة للتبادل التجاري، في حين نجد أنّ أخوة يوسف القادمين من البدو يعرضون بضاعةً ليشتروا المواد التموينيّة. يقول تعالى "وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم". ويقول "فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضُّر وجئنا ببضاعة مزجاة ...".

ونجد إشارة إلى مدى حرصهم على التخلص منه في أقرب وقت خوفا من أن يلتفت أحد إلى كونه مسروقا، فإن يوسف لاتبدو عليه علامات الرق والاستعباد.

فالمجتمع المصري آنذاك كان يتمتع بقوانين صارمة، وكانت هناك سلطة مركزية تتحكم في تصريف الأمور وفق معايير ثابتة، ونلاحظ ذلك أيضا من خلال نسبة الصواع إلى الملك، وكأنه هو المقياس الأعلى للموازين، يقول تعالى"قالوا نفقد صواع الملك". وهذا يشير إلى المستوى الحضاري للمجتمع

المصري في ذلك الوقت؛ فهناك سلطة مركزية تشرف على أدق الأمور بما فيها المكاييل.

١٤- تخطيط امرأة العزيز.

إن امرأة العزيز طلبت مضاجعته، وقد حرص الذكر الحكيم على أن يكني عنها بقوله "التي" لأن في صون الألسنة عن الوقوع في الأعراض حفاظا على سلامة المجتمع.

فقد أعدت كل شيء، أعدت الزينة، وفرغت المكان، وأحكمت غلق الأبواب، وبدأت في المراودة، وصيغة مفاعلة تدل على التكرار، وفي ذلك إشارة إلى إلحاحها.

وقد استعصم يوسف بالله، ورفض الطلب، ويبدو أنها هددته بالسجن، فقبل أن يسجن على أن يقع في الزنا.

وقد عرضت امرأة العزيز الحلول على زوجها، وليس ن بينها القتل، وهذا نوع من التخطيط، حيث قالت "ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم" وهي تطمع أن تنال من يوسف م ترجوه في المستقبل.

ونلاحظ أن امرأة العزيز استخدمت الكناية في ذكر يوسف ولم تلجأ إلى التصريح، حفاظا على هيبتها، وإهانة له، فقالت "من" ، وهو أيضا استخدم للإشارة إليها ضمير الغائب "هي راودتني" تأدبا يليق بأخلاق الأنبياء، وفي ذلك أيضا صون لما قدمه العزيز له من معروف.

وقد ظهرت براءة يوسف حيث شهد شاهد من أهل امرأة العزيز، وهذه الشهادة وإن كانت لم تغير النتيجة إلا أنها أثبتت لهم صدق يوسف، فهم وإن عاقبوه إلا أنهم لم يروه مخطئا.

وقد فهم العزيز ذلك، وقد اتضح فهمه من خلال قوله "يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين" فقد نادى يوسف باسمه، وفي ذلك تلطف معه، وحينما خاطب امرأته، لم ينادها، ولم يستخدم معها الضمير، بل وجه إليها الأمر مباشرة "واستغفري".

١٥- تخطيط العزيز.

العزيز أراد أن يتخذ يوسف ولدا، فأحسن تربيته، وعلمه كل الفنون، حتى أصبح مكتمل الجسم والعقل، وحينما كانت مكيدة زوجته، أراد العزيز ألا ينتشر خبر خيانتها، فقال "يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين" وقد استخدم اسم الإشارة (هذا)كراهة في ذكر الحدث، ولحاجته أن ينقطع الكلام عند هذا الحد، ولكن الله تعالى أراد أن ينتشر الخبر لحكمة أرادها، فـ" قال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه..." وفي ذلك إتمام للتخطيط الإلهي، فحينما يُعاقب من أشاع الخبر، سيكون الفتيان هما رفيقا يوسف في سجنه، حيث إنهما من أشاع خبر المراودة، فكان هذا عقابا لهما.

وفي دخولهما معه السجن تتمة للتخطيط؛ حيث سينقلان عنه نزاهته وبراءته، فلا يتعامل معه السجانون والمسجونون بوصفه مجرما.

١٦- تخطيط تفسير الرؤيا.

كشف تفسير يوسف عليه السلام لرؤيا الفتيين عن غيب مستقبلي جاء في الآية ٣٦ من السورة: " وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ". فقد قام يوسف، عليه السلام، بتأويل رؤيا السجينين، وبذلك تمّ إطلاعهما على المستقبل قبل حصوله. واللافت هنا أنّ تأويل هذه الرؤيا كان سبباً في خروجه، عليه السلام، من السجن، لنكتشف أنّ إطلاع السجينين على مصيرهما المستقبلي كان من حكمته أن يكون هذا الإطلاع مقدّمة لخروج يوسف، عليه السلام، من السجن، وقد تتابعت أحداث القصة حيث " قَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ "إنها رؤيا جاءت بخير عظيم، من أجل مجتمعات توشك أن تتعرّض للقحط والمجاعة. لذا لا بدّ من الاستعداد، واستغلال الوفرة قبل القحط، فشاء الله أن تكون سبباً لخروج يوسف، عليه السلام، من السجن، وتوليّه أعلى منصب

في الدولة بعد الملك. ومثل هذا التمكين يساعده، عليه السلام، في نشر رسالته، في المجتمع المصري.

كما أن تفسير الرؤيا فيه رد لكل المعتقدات السائدة من الكهنة وعبدة الأوثان، حيث كانوا يتمتعون بقوة دينية عظيمة، حيث كانوا مقربين إلى الحكام، ومن ثم جاء عجزهم عن تفسير رؤيا الملك سبيلا لدحض معتقدهم.

١٧- تخطيط التعرف على يوسف وإخوته.

روى الضحاك عن ابن عباس قال: لما فوض الملك إلى يوسف أمر مصر، تلطف يوسف للناس، ولم يزل يدعوهم إلى الإسلام، فآمنوا به وأحبوه، فلما أصاب الناس القحط، نزل ذلك بأرض كنعان، فأرسل يعقوب ولده للميرة، وذاع أمر يوسف في الآفاق، وانتشر عدله ورحمته ورأفته"[١]

وقد عبر الله تعالى عن ذلك بقوله " كذلك كدنا ليوسف، ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك، إلا أن يشاء الله ...". فهذه مشيئة الله التي هيأ لها ما يجعلها واقعا.

ويعبر الله تعالى عن تلك الأحداث قائلا:" وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وقال لفتيانه:اجعلوا بضاعتهم في رحالهم , لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون"

ففي ذلك حسن تدبير، حيث إنهم محتاجون، كما أنهم سيجدون بضاعتهم التي جاءوا بها في رحالهم، مما يدفعهم للعودة مرة أخرى.

ثم يسير السرد باستخدام (قال) التي جاءت خلال السورة لتصل الأحداث بعضها ببعض "وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ

---

[١] **الإمام ابن الجوزي ،أبو الفَرَج عبد الرحمن بن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير ، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ ، نشر: المكتب الإسلامي – بيروت سورة يوسف ، صـ٢٤٦.**

يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) "

١٨- تخطيط العودة .

فمن تمام التخطيط الإلهي أن تسير الأحداث وفق إرادته سبحانه وتعالى، عندما تسوء حالة إخوته الاقتصاديّة، وذلك نتيجة استفحال القحط، " فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ".

وقد بدا التخطيط من يوسف عليه السلام لكي يعودوا مرة أخرى، فقد قال تعالى: " وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ "وهنا يطلب منهم أن يأتوا بأخ لهم كي يزيد لهم العطاء.

فلما كان هناك فارق زمنيّ بين تجهيز حمولة أخوة يوسف، ووصية يوسف، عليه السلام، لهم؛ لأنّ الرحيل في العادة لا يكون بعد التجهيز مباشرة، وإنما كان يرتبط بالوقت المناسب لرحيل القوافل. ولا تكون الوصية في الغالب إلا عند اقتراب الرحيل، أو وداع المسافرين. ومن هنا، ونظراً لوجود فارق زمنيّ بين الفعل جَهَّزَهُم والفعل قَالَ ، ناسب أن ترد الأداة وَلَمَّا.

ويتسمر السرد ويتسلسل العرض، وقد بدأ يوسف عليه السلام في تنفيذ تخطيطه في أن يجعل أخاه بنيامين معه :" فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ "

ولذا فقد تواصل السرد " وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ..."، والجعل في الرحال فيه معنى الإخفاء في الداخل، ويستمر السرد في هذا

التعاقب البديع " وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ "، فقد جاءت الأداة وَلَمَّا هنا نظراً لوجود فارق زمنيّ بين الفعل فَتَحُواْ ، والفعل وَجَدُواْ.

وقد لاحظنا هذا الانتقال باستخدام (لما) التي تكاد تكون مفاصل هذه الأحداث " فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ". فقد وردت الأداة فَلَمَّا لعدم وجود فارق زمنيّ كبير بين الفعل رَجِعُوا قَالُواْ وهذا يشير إلى مسارعة إخوة يوسف، عليه السلام، لإخبار أبيهم بمنعهم من الرجوع إلى مصر. وهذه المسارعة كانت بمجرد لقائه.

.وقد بادر يوسف،عليه السلام، إلى إحضار أخيه الصّغير، واحتجزه عنده، فكان في ذلك ضمانة لرجوعهم إليه، كما سبق له أن ردّ إليهم بضاعتهم سرّاً، ليضمن رجوعهم.

ويدرك يعقوب عليه السلام من خلال تسلسل الأحداث قرب تحقق الرؤيا فيقول"يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ".

وتأتي نهاية السرد في ذلك المشهد المهيب الذي تتجلى فيه قدرة الله، حيث يقول الله تعالى: "فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه , وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش , وخروا له سجدا . وقال: يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا , وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن , وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي , إن ربي لطيف لما يشاء , إنه هو العليم الحكيم . . رب قد آتيتني من الملك , وعلمتني من تأويل الأحاديث , فاطر السماوات والأرض . أنت ولي في الدنيا والآخرة , توفني مسلما , وألحقني بالصالحين"

فنلاحظ هذه العلاقة بين كلام سيدنا يوسف وبين الحال، حيث انتقل السرد كالعادة باستخدام (لما) التي سبقت بحرف الفاء للدلالة على السرعة، فبعدما دخلوا عليه وتحققت رؤيا يوسف عله السلام، بدأ في توجيه الحديث لأبيه فرحا واستبشارا، وقد نسب الفضل لله تعالى، فالله هو المدبر، حيث أحسن إليه وجاء بهم من البدو، وقد نسب ما كان من إخوته إلى الشيطان، لكي لا يجرحهم، ومن ثم جاء تعقيبه باستخدام "لطيف" لما فيه من دلالة على قدرة الله في تيسير وتسيير الأمور في خفاء.

كما أنه استخدم صفتي "عليم" و"حكيم" لما لهما من تعالق بالسياق السردي، فالله الذي علم ما كان وما سيكون هو من قدر ذلك ودبره بحكمة ولطف.

ونظرا لمعرفته بقدر ربه صغر أمامه معترفا بقدرته ونعمه، مستخدما كلمة فاطر التي توحي بقدرة الله .

ثالثا: ملامح التخطيط الأسلوبية:

تقوم قصة يوسف على أسلوب السرد، والسرد narration هو قص حدث أو أحداث، باستخدام اللغة عبر ترتيب معين، بأشكال متنوعة، وهذا الحكي يقوم عامة علي دعامتين أساسيتين (أن يحتوي علي قصة تضم أحداثا معينة، وأن تتعين الطريقة التي تحكي بها القصة) وبما أن السرد يرتبط في مفهومه بالحكي " فإن السرد هو الذي يعتمد عليه في تمييز أنماط الحكي بشكل عام [1].

والحكي باعتباره قصة محكية فإنه يقتضي وجود شخص يحكي وشخص يحكي له وقصة محكية، ومن ثم يتحدد السرد علي أنه " الكيفية التي تروي بها القصة عن طريق هذه القناة نفسها وما تخضع له من مؤثرات، بعضها متعلق بالقصة ذاتها[2].

وقد اعتمد السرد في قصة يوسف على الانتقال السريع بين الأحداث، والوقوف على ما يخدم غرض القصة، ومن مظاهر خصوصية السرد في قصة يوسف:

١- الإيجاز: وقد بدا الإيجاز ظاهرا جليا من خلال:

١) عدم الالتفات إلى ذكر الأشخاص والأعلام، فمن عادة القرآن ألا يذكر إلا الاسم المقصود من القصة[3].

---

[1] **حميد لحمداني: بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي) - المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - ط٣- ١٩٩٣- ص ٤٥ .**

[2] **السابق ٤٥ .**

[3] **ابن عاشور: التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس- ١٩٩٧ جـ١٢،صـ٢٢٥.**

٢) استخدام (ال) العهدية التي تختصر الكلام، كما في "الجب" لعلمهم جبا معينا، كما في "السقاية" لعلمهم بسقاية محددة.

٣) استخدام المجاز العقلي، بنسبة الأفعال لغير فاعليها، اختصارا للعلم بهم، كما في قوله تعالى "جعل السقاية في رحل أخيه" وهو لم يجعلها بل أمر العمال أن يجعلوها.

٤) حذف جمل متتابعة لقدرة المتلقي على استنباط مضامينها، كما في قوله تعالى" فلما ذهبوا به وأجمعوا..." فقد تم حذف جمل متتابعة، فقد ألحوا على أبيهم، فقبل، فأخذوا يوسف معهم، ووصلوا إلى المكان الذي أرادوا....

٥) حذف جواب الشرط، كما في قوله تعالى "إن كنتم فاعلين".

٦) الانتقال من حدث إلى حدث اعتمادا على فهم المتلقي.

٧) استخدام الكناية بوصفها ممكنا أسلوبيا، حيث إن في استخدامها إشارة إلى صدق المتكلم، ومن ذلك:(دراهم معدودة)كناية عن قلتها، وكقوله "وابيضت عيناه من الحزن "كناية عن العمى[١].

٢- الحكي السردي المتسم بالانتقال السريع، فقد جاء حكي القصة، في شكل مسلسل، مع استخدام ما يضمن هذا التسلسل في الأحداث، ونلاحظ أن الروابط اللغوية كان لها دور فعال في هذا التناسق والتتابع، ومن أكثرها: الأفعال (قال، جاء، لمَّا)، ففعل القول جاء بصيغة الماضي دائما. فقد تنوعت الأفعال بين الماضي والمضارع والأمر، وهذا التنوع أكسب الخطاب فعالية وحركية. و نظرا لكون الزمن الماضي هو زمن وقوع القصة فقد جاءت لفظة (قال) اثنتين وسبعين) مرة، وجاءت مفردة (لما) عشرين مرة، وهاتان المفردتان تقومان بمهمة انتقال الأحداث وتسلسلها في القصة، مع الاتكاء على استخدام الإحالات المتعددة (باستعمال أسماء الإشارة).

٣- جاء الحوار المتداخل مع نسيج السورة، ليعكس لنا الأحداث وكأنها تتكرر من جديد.

---

[١] **الألوسي ، محمود الألوسي البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، ضبطه وصححه علي عبد الباري عطية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت.، جـ١٣، صـ٥٣.**

٤- بداية القصة ونهايتها بذكر أهمية القصص فيه دلالة على وجوب تأمل هذه القصة للوقوف على ما فيها من عبر.

٥- عرض العلة وتوضيح السبب من أهم ميزات القصة الأسلوبية، حيث إن العلاقة السببيّة التي تقوم بين الجمل (التراكيب) على مستوى الامتداد النصي. وهي وفقاً لمنظورات نصية أوسع، علاقات تقوم بين الوحدات النصية، فتربط القضايا النصية بعضها ببعض[١]؛ لتركيزها المباشر على ربط المركبات القضوية النصية [٢]أي ربط الدلالات لتصل إلى الغاية المطلوبة أو الدلالة الأساسية، ونستطيع أن نقف على ذلك خلال المواضع التالية:

- ✓ (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا)هذا الفعل يتطلب مبررا، وهذا المبرر أشبه بالمغالطة، (يخل لكم وجه أبيكم) (وتكونوا من بعده قوما صالحين).
- ✓ (لاتقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب) وهذا الرأي الذي خالف الآراء يحتاج مبررا، فيأتي (يلتقطه بعض السيارة).
- ▪ والملاحظ أن المبرر في هذين المشهدين جاء جملة مبدوءة بفعل مجزوم في جواب الطلب، وفي استخدام هذا الأسلوب نوع من الترغيب في الرأي، بالإشارة إلى حتمية تحققه.
- ✓ (قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون) فجملة (وإنا له لناصحون) مقدمة لقياس أرادوه ليكون مبررا لسماح أبيهم لهم بأخذ يوسف، ومجيء هذا المبرر مكتظا بكل هذه الوسائل التوكيدية يحقق غايتهم من الخطاب.
- ▪ (إنا) التأكيد بإن، مع استخدام (نا) الجمع التي توحي بكثرتهم، والكثرة هنا تؤكد قدرتهم على إنجاز الوعد، مع تقدم (له) الذي يوحي

١() فولفجانج هاينه/ ديتر فيهفيجر: مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة: فالح بن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود للنشر العلمي والمطابع،١٤١٩ ـ ١٩٩٩ص٤٦.

٢() المرجع نفسه، ص٤٥.

بالاهتمام به، فهم يعرفون قدره عند أبيه، ودخول (اللام) على اسم الفاعل الدال على الاستمرار (لناصحون).

- وفي تقديم هذه الجملة (وإنا له لناصحون) على الطلب(أرسله معنا) ممكن لغايتهم التغريرية من الخطاب.

✓ (أرسله معنا غدا يرتع ويلعب) جاء التعليل في هيأة فعل جواب الطلب المجزوم، الذي أشرنا إلى غايته من قبل، ومن ثم جاءت جملة (وإنا له لحافظون) مبررة لذلك الطلب ممكنة له في نفس أبيهم.

وقد جاءت حجة (العصبة) هنا حجة متكررة، "ونحن عصبة" ساعة أن أرادوا قتل يوسف، و"نحن عصبة" ساعة أن أرادوا حث أبيهم على إرسال يوسف معهم.

وقد ارتبطت الحجة في الحالين بالتأكيد "إن أبانا لفي ضلال مبين" و" إنا إذا لخاسرون".

والملاحظ أنهم استغلوا اللغة للتأثير على أبيهم، فقد رأى أوستين أن" عدداً كبيراً من العبارات المتلفظ بها مما يشبه أن تكون جملاً قد انكشف من أمرها كونها لم يُقصد بها ، لا فى كلها ولا فى جزئها ، أن تخبر عن أمر ، أو أن تبلغ معرفة ما عن حدث واقعى على وجه مخصوص ، مثلاً أحكام القيمة فى الأخلاق هى قضايا يُقصد بها إظهار الشعور العاطفى أو إلزام نوع من السلوك ، أو تغييره على وجه ما " [1] وقد استطاعوا أن يقنعوا أباهم، وأن يتحول الفعل إلى منجز، فيرسل معهم يوسف عليه السلام.

١() أوستن : نظرية أفعال الكلام العامة ترجمة د. عبد القادر قنينى – أفريقيا الشرق ٢٠٠٤م ص ١٤

الخاتمة

وبعد هذه القراءة التفاعلية لسورة يوسف عليه السلام يمكننا أن نقول إنها نموذج للتخطيط واستشراف المستقبل، وأنها جاءت في أسلوب بديع، وبيان رائق، جمع بين خطاب العقل وخطاب الروح، وأنها مكنت للمقتضى التعليمي والتشريعي والحجاجي بوسائل أسلوبية جاءت خلال قالب سردي يجذب الأفهام والأسماع.

ونستطيع أن نضع بين يدي القارئ بعض الملامح التخطيطية فيما يلي:

- الاختيار بين البدائل، باختيار أقل ضررا، ونقف على ذلك خلال قول يوسف عليه السلام، قال تعالى:". قال:رب , السجن أحب إلى مما يدعونني إليه , وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن , إنه هو السميع العليم .
- التوكل على الله بالأخذ بالأسباب، قال تعالى حاكيا قول سيدنا يوسف عليه السلام للذي نجا من الفتيين اللذين دخلا معه السجن:" اذكرني عند ربك . فأنساه الشيطان ذكر ربه . فلبث في السجن بضع سنين"
- وضع المكافآت والحوافز التي تدفع إلى العمل"ولمن جاء به حمل بعير".
- وضع العقوبات الرادعة التي تمنع وقوع التعديات، فقول إخوة يوسف"فهو جزاؤه" تقرير للحكم، أي فأخذ السارق نفسه وهو جزاؤه لا غير[1].

[1] **الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تحقيق عادل أحمد عبد**

- الالتفات إلى قدرة الله في تسيير الأمور، وهذا الأمر من مظاهر التخطيط الإلهي، فالله حكيم عليم، حينما يريد شيئا يقدر له أسبابه.
- كان التوكيد وسيلة لتحقيق غاية، كما في توكيد إخوة يوسف كلامهم بالوسائل المختلفة لإقناعهم بأخذه معهم، ومن ثم الإقناع بعد ذلك بأكل الذئب له.
- برع أهل مصر في علوم المستودعات والتخزين وعلوم الري ومقاييس النيل، وهذه علوم لها علاقة وطيدة بالاقتصاد.
- وقد استغل يوسف هذه العلوم، مما جعله يستغل أيضا الموارد البشرية، وقد بدت خلال السورة المؤهلات التي ينبغي أن تكون في الموارد البشرية وهي : الأمانة والتقوى و الحفظ والعلم والتعاون والصدق والوفاء.
- من مؤشرات النجاح الاقتصادي:

✓ وضع الخطة الناجحة.
✓ اختيار النماذج البشرية المؤهلة.
✓ تحمل المسؤولية.
✓ تحديد الأهداف.
✓ تحديد المشكلات.
✓ وضع البدائل.
✓ وضع الحلول.
✓ المراقبة والإشراف الإداري.

- قصة يوسف مع امرأة العزيز توجه رسالة لكل نفس، لأن النفوس مجبولة على الميل إلى الطرف الآخر، سواء من الرجال أو الإناث.
- العفو عن الآخرين : عفو يعقوب عن أبنائه عفو يوسف عن إخوته عفو يوسف عن امرأة العزيز.

الموجود وعلي محمد معوض، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ، نشر : مكتبة العبيكان – الرياض.جـ٢،صـ٣٦١.

- الشخص الناجح هو الذي يلتفت فقط إلى موضوعه الأساسي، ولا تشغله شواغل أخرى، فيوسف عليه السلام حينما اتهمه إخوته كذبا وزورا بأنه سرق، لم ينفعل أو يغضب غضبا ظاهرا، بل أسرها في نفسه، قال تعالى:" قالوا:إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ! فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم . قال:أنتم شر مكانا , والله أعلم بما تصفون".

ولذا فإني أوصي باستثمار الثروة البشرية، بحيث يكون كل ذي إبداع أو قدرة عقلية في المكان الذي يليق به، وبذلك نحقق مبدأ الرجل المناسب في المكان المناسب، انطلاقا من قول يوسف عليه السلام (اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ أمين).

وأوصي بقراءة القرآن والحديث النبوي قراءات استشرافية مستقبلية لوضع حلول لمشكلاتنا الراهنة.

وختاما أسأل الله القبول والسداد.